اليرموك: كارثة أكبر من مخيم

ميساء الخطيب*

خاصرتان أوجعتا وطناً

في ذاكرتي الآن خاصرتان: الأولى أصابها شلل تام، من نصال غُرزت فيها بيد القوات الفاشية، والثانية تحاول المقاومة وصدّ السهام، في انتظار مَن يخلّصها من هذا الألم كله.

لو كنت طفلة لا تعي ما يدور حولها من مجازر عندما سُحق مخيم تل الزعتر، لما استطعت المقارنة بين الألم الذي أصاب هذا المخيم بمقتل في خاصرته، وبين الألم الذي يكاد يقضي على كل مَن بقي حياً في خاصرة مخيم اليرموك، منذ ثلاثة أعوام إلى هذه الأيام السوداء، لكنني لم أكن، لأني خرجت من مخيم تل الزعتر مع مَن خرجوا، ولم يكونوا سالمين، حين كنت في عمر الخامسة عشرة. لذا، ذاكرتي حُبلى بأصناف الوجع كلها، وبأدق تفصيلات مجزرة بشعة ارتكبها فاشيون، عطشهم للدماء فاق الخيال.

المقارنة قريبة جداً، بل تكاد تكون متشابهة في مسار أحداثها بين المخيمَين، ويكاد يكون الفارق فقط في الزمان والمكان، وفي تغيير وجوه الفاشيين المتعطشين لدماء أبرياء ذنبهم الوحيد أنهم صمدوا في مخيم اليرموك ولم يغادروه.

ولئن فكّروا في المغادرة، فإلى أين يغادرون؟! وقصص الذل والمهانة التي تصلهم ممّن غادروا المخيم إلى شتى بقاع الأرض، لا تُعدّ ولا تُحصى. إلى أين يغادرون؟! والبحر لم يكن رحيماً بمئات ممّن جازفوا بحياتهم واعتلوا سفناً مهترئة، وكانت نهايتهم طعاماً لأسماك. إلى أين يغادرون؟! والمثل الفلسطيني يذكّرهم بأن "مَن طلع من داره، قلّ مقداره". إلى أين يغادرون؟! وهم الذين هُجّروا من فلسطين في سنة ١٩٤٨ وذاقوا مرارات الدنيا كلها من التهجير، فلا الأرض رحمتهم ولا السماء، ولا حتى البحر واسع الصدر كما كانوا يعتقدون.

تماماً كما حوصر مخيم تل الزعتر قبل ٤٠ عاماً، لمدة عام ونصف العام، وقد بدأ الحصار بالتدريج إلى أن قطعوا عنه حتى الهواء الذي كنا نتنفسه، يحاصَر مخيم اليرموك منذ ثلاثة أعوام، ويسعى المحاصِرون لقطع الهواء عنه بالتدريج، باسم السلطة

* فنانة مسرحية فلسطينية.

مرة، وباسم الدين آلاف المرات.

لا أحد بريء من دم أبناء مخيم تل الزعتر، ولا أحد برئ من دم أبناء مخيم اليرموك. في تل الزعتر، وعلى مدار عام ونصف العام، لم تكن منظمة التحرير الفلسطينية قادرة على فك الحصار عن المخيم، وتجنيبه أبشع مجزرة، مع أنها كانت في أوج عطائها النضالي. لاحقاً، اكتشفنا أن تل الزعتر كان كبش فداء لغايات سياسية تطمح إليها المنظمة، ولتصفية حسابات مع قوى لم يكن المخيم يستفيد منها، تماماً كما تقف اليوم بقايا عظام المنظمة وولية نعمتها اليوم، سلطة أوسلو، عاجزة أمام محنة مخيم اليرموك وأهله. تقفان مكتوفتَي الأيدي كأن المخيم للاجئين غرباء في بلد ما على خريطة العالم، وكأنه لا يمتّ لفلسطين بصلة، باستثناء ما نسمعه من باب رفع العتب، من تصريح هنا وآخر هناك بشأن فك الحصار عن المخيم، فما نسمعه لا يزيد عن كونه جعجعة فارغة.

ما يحدث اليوم من ذبح وبطش في مخيم اليرموك، حدث قبل ذلك في تل الزعتر، وكما يجوع ويعطش أهالي المخيم الآن، جاع أهالي تل الزعتر كلهم وعطشوا. في اليرموك يقطعون الرؤوس بذريعة الدين، وفي تل الزعتر بطشوا بالأهالي بحجة لفظ كلمة بنْدورة (بتسكين حرف النون).

في تل الزعتر تحايل الأهالي على الجوع بأكل لحوم الجيف، وتحايلوا على العطش بترطيب شفاه أبنائهم بماء لا تشربه حتى الخنازير. ومَن أصيب بشظية، ولم يمت بقذيفة أو برصاصة موجّهة من قنّاص، مات بسبب فقدان الدواء وعدم توفر الإسعافات اللازمة لإنقاذ حياته.

وفي اليرموك، يُجبَر الأهالي على تكرار التجربة نفسها؛ حلقات مسلسل يُعاد بثها على جميع الفضائيات العربية والعالمية، بعد أربعين عاماً على إنتاجها، وربما قبل ذلك عندما حلّت النكبة، والجمهور يتفرج وأمامه ما لذ وطاب من المأكولات والمشروبات.

وفي الوقت الذي يستنجد شعبنا في المخيم بنا نحن الذين في خارجه، لم نفعل حتى هذه اللحظة أي شيء لإنقاذه، غير البكاء والنواح على معاناة أهله من على صفحات التواصل الاجتماعي الصماء، ومَن استحثّه هول الكارثة على الفعل أضاء شمعة في أحد الميادين. كيف لا وقد أصبحت الأغلبية منّا مناضلين، لكن على صفحات نكتب فيها ما يدغدغ عواطف البشر، ونتلقى الإعجاب والتعليقات الموافقة لرأينا، ونسمع تصفيق الأكف لنا، ثم نغادر إلى حياتنا الخاصة بكل تفصيلاتها، مرتاحي الضمائر. مناضلون "فايسبوكيون"، يا لبؤس المصير الذي وصلنا إليه! ■